الفصل الخامس

المشاكل الجنسية فى المدرسة

لا تتوقف شخصية المدرسة على المستوى الخلقى لتلاميذها فحسب. ولكنها تتوقف أولا وقبل كل شىء على المستوى الخلقى لناظر المدرسة ومدرسيها وعلى مدى تأثيرهم الشخصى فى التلاميذ.

أهمية الجو المدرسى:

قد تفرغ المدرسة جهدها فى سبيل عرض حقائق الجنس البيولوجية على تلاميذها، وقد تستنفد كافة الوسائل فى الدروس ونواحى النشاط الحر حتى تربط هذه الحقائق بحياة التلاميذ وتفسرها لهم فى ضوء الحياة الاجتماعية، ولكنها مهما بذلت فى هذا السبيل لا تكون قد حققت رسالة التربية الجنسية بأجمعها، إذ أن الهدف الأساسى للتربية الجنسية لا يقتصر على استعراض الحقائق وإنما يتعدى ذلك إلى التأثير فى اتجاهات الأفراد وسلوكهم وذلك وأيم الحق هو ما يجعل مهمة المربى شاقة عسيرة.

غير أن صعوبة المهمة لا يصح أن تقف حائلاً بيننا وبين القيام بها على خير وجه. ولا ريب فى أن كثيراً من المعلمين قد لمسوا هذه المشكلة وآمنوا بوجودها فى المدرسة بعد أن كانوا لوجودها منكرين. فقد قال قائلهم «عندما بدأتُ مهنة التدريس منذ نيف وخمسة عشر عاماً خلت، لم أكن أتصور وجود أية مشكلة جنسية عند تلاميذ مدرستى. وكنت أعتقد أن هذه المشكلة لو وجدت فإنها لا تكون من الخطورة أو الأهمية بحيث تشغل بال المعلم واهتمامه. ولكننى بدأت أومن بوجودها وبضرورة الاهتمام بحلها بعد أن عاشرت التلاميذ واستمعت إلى أحاديثهم واطلعت على الكتب التى يقرأونها عندما يخلو لهم الجو، وبعد أن لاحظت ألوان انفعالاتهم عند رؤية الجسد البشرى العارى والصور التى تمثله».

كيف السبيل إلى حل هذه المشكلة؟ قد يستطيع المدرس الخبير أن يمدنا باقتراحات طيبة محدودة عن أفضل الظروف وخير الطرق لتوصيل المعلومات الجنسية إلى التلاميذ، ولكنا لسنا على يقين من أن فى وسعه أن يمدنا بمثل هذه الاقتراحات عن كيفية تشجيع هؤلاء التلاميذ على أن يقفوا من الجنس موقفاً سليمًا وأن يسلكوا نحوه سلوكاً أيضاً. فلنحاول من جانبنا أن نبين كيفية الوصول إلى هذا الهدف، ونحن نجزم منذ البداية بأن هناك اتفاقاً فى الرأى بخصوص الحقائق الجنسية من الناحية العلمية، ولكننا فى شك عما إذا كان هناك اتفاق فى الرأى على تحديد الاتجاه العقلى أو السلوك الخلقى المثالى نحو الجنس.

ويزيد هذا الشك ويشتد الاختلاف عندما نكون بصدد الكلام عن البالغين ولذا فإن مناقشة الاتجاه العقلى نحو الجنس وسلوك البالغين نحوه يحتاج منا تفكيراً جدياً، بينما تضعف أسباب هذا الشك وتقوى أواصر الاتفاق لحسن الحظ عندما نتكلم عن نوع الاتجاه المرغوب فى وجوده عند أطفال المدارس وعن نوع السلوك الذى يمكن أن ننتظره منهم فيما يتعلق بالأمور الجنسية، وإن كان هذا الاتفاق ليس تاماً بالطبع. فبينما يرجو بعض الآباء أن يكون أطفالهم على غرار الملائكة الأطهار إذا ببعض المعلمين يعتقد أن هؤلاء الأطفال ليسوا سوى أبالسة صغار. وبين رجاء الآباء الباسم وهذا الحكم الصارم توجد طائفة ثالثة تدبرت الأمر فى هدوء ورزانة ووصلت فيه إلى نوع من الاتفاق.

ومحور الاتفاق قولهم بأهمية «الجو المدرسى» كمؤثر فى سلوك تلاميذها. حقاً لقد تغالى بعضهم فى تفسير معنى «الجو» حتى انطوت تحته معان ليست منه فى شىء مما حدا بكثيرين ممن لمسوا تلك المغالاة إلى رفض تلك الفكرة. ورغم ذلك فتأثير جو المدرسة فى تلاميذها حقيقة لا مراء فيها، حقيقة لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها، حقيقة يدركها كل من تحادث مثلاً مع أفراد الفرق الرياضية إذا تجمع أفرادها فى حلبة المباراة، فقد نجد بين هذه الفرق فريقين من مدرستين متشابهتين من حيث الموقع الجغرافى والبيئة الاجتماعية، ثم نتبين بين أفراد الفريقين من هو بذىء اللسان خشن التصرف بينما لا يصدر عن أفراد الفريق الآخر إلا ما ينتظر عادة من شخص أصيب فى ساقه مثلاً أو ما ينتظر حدوثه عادة من فريق ناهض من الفتيان.

وجملة القول فإن المدرسة بوتقة لصهر الخلق، والتربية الجنسية عنصر هام من العناصر التى تموج بها هذه البوتقة، حتى إذا ما طلب منك فى يوم من الأيام وضع خطة مفصلة للتربية الجنسية أمكنك أن تقول «لسوف تجد هذه الخطة فى ثنايا تدريب الخلق». والواضح أن حياة المجتمع المتحضر تستلزم تنظيم الرغبات البدائية، ومن بينها الرغبات الجنسية، وكلما كان خلق الفرد قوياً متيناً كلما أمكنه تنظيم هذه الرغبات تنظيما قويماً. ورغم ما قد يعترض هذا التنظيم من عقبات فسوف نحاول الإشارة إلى طريق معالجة بعض المشكلات الجنسية المحددة التى قد تنشأ فى ظروف معينة فى كل مدرسة من المدارس.

وقبل أن نبدأ هذا البحث نشير عرضاً إلى أن ما نعتبره من «مظاهر النشاط الجنسى» للطفل قبل المراهقة ليس فى أغلب الأحوال نشاطاً جنسياً فى أساسه على الإطلاق. وضروب النشاط التى من هذا النوع قد تكون موجهة فعلاً إلى موضوع جنسى، ومع ذلك فقد لا يكون الدافع إليها فى كل حالة اهتماماً جنسياً مقصوداً. ولذا يجب على الكبار أن يتوخوا الحرص والحذر ولا ينسبوا إلى الطفل وجود ذلك الشعور الذى كان يدفعهم حتما فى مثل تلك الظروف إلى مثل هذا النشاط. ولكن سواء اتجه لعب الأطفال إلى الناحية الجنسية بمحض الصدفة أو كان الدافع

إليه جنسياً مقصوداً فواقع الأمر أن معظم الأطفال لا يضارون نتيجة لذلك. ورغم ما سبق فعلينا أن ننشئ الأطفال على احترام مقاييس معينة للسلوك الاجتماعى، وعلى ذلك ينبغى علينا ألا نطلق العنان لألعابهم بذات الطابع الجنسى. ليس معنى ذلك نكبت اهتمامهم الحقيقى بالجنس أو نؤنبهم على هذا اللعب فنبالغ فى ما قد يكون لديهم من اهتمام جنسى محدود، وإنما نستطيع أن نحدد من هذا اللعب الجنسى إذا وفرنا لهم نشاطاً آخر يشغلهم ويستحوذ على اهتمامهم.

المذكرات الجنسية:

ويسأل بعض المعلمين أحياناً عن الكيفية التى يعالجون بها «مشكلة التلاميذ الذين يتداولون المذكرات ذات الألفاظ البذيئة»، والجواب عن هذا السؤال أننا نشعر بأن أساس هذه المشكلة فى الغالب ليس سوى مشكلة التظاهر بالحشمة من جانب المعلم أكثر من أن تكون مشكلة إتيان فاحشة من جانب التلميذ. فغالباً ما تكون هذه المذكرات فجة فى ألفاظها ولكنها بريئة فى مرماها إلى حد كبير. وإذا كنا نفعل من جانبنا ما يشعر الأطفال بأننا نحيط موضوع الجنس بسياج من السرية والغموض، فهل ثمة ما يدعو إلى العجب إذا عمد هؤلاء الأطفال إلى تبادل المذكرات السرية فى هذا الموضوع؟! إن تقصيرنا هو الذى أدى إلى خلق هذه المشكلة، ولذا ينبغى علينا أن نكرس بعض الوقت لنتدبر ما وقعنا فيه من أخطاء بإهمالنا تنوير الطفل من هذه الناحية، بدلاً من أن نتحسس ما يختزنه من أفكار ونحن نرتعد فرقاً وإشفاقاً. وقد دلت التجارب التى أجريت فى بعض المدارس على أننا كلما بكرنا بتعليم الطفل حقائق الجنس كلما قل تداول المذكرات الجنسية بين التلاميذ. أما إذا عالجنا هذا الأمر باعتباره دليلاً على فساد متأصل فى نفس التلميذ فإنّا نكون قد تنكبنا السبيل فى الوصول إلى عصب المشكلة ومحورها.

وقد يحدث فى أثناء الدرس أن يلحظ المدرس بعض الرسوم الكاريكاتورية ذات المغزى الجنسى فى طريقها السرى تحت الأدراج وهى تنتقل من تلميذ إلى آخر فيصادرها ثم يلقى عليها نظرة استنكار يثنيها بالعقاب الصارم الزاجر، ورغم هذا فقد يفطن بعض التلاميذ إلى أن نفس قصاصة الورق التى ضبطها المدرس سوف تكون موضعاً للتفكهة بين المدرسين وسوف تثير عاصفة من الضحك بينهم عندما تحتويهم غرفتهم فى فترة الاستراحة. فلكى نتجنب رذيلة الرياء والنفاق ينبغى علينا ألا نطالب تلاميذنا بسلوك جدى أكثر من السلوك الذى نقبله بالنسبة لأنفسنا. وإذا اعتقدنا أننا نخطئ إذ نمزح مزاحاً بينه وبين الجنس علاقة ما، فلنتخذ من مصادرة تلك المذكرات الجنسية فرصة مواتية لتربية التلاميذ من الناحية الجنسية لا بعقابهم وإنما بشرح وجهة نظرنا لهم. أما إذا كنا نشعر بأن ثمة مظاهر معينة للجنس والسلوك الجنسى تدعو إلى الضحك حقاً وأن الجنس يمكن أن يكون مجالاً للفكاهة فى بعض

الأحيان، فحرىّ بنا ألا نصطنع النفاق والتزمت وعلينا فى هذه الحالة أن نفرق بين الضحك الصادر عن القلب وبين الابتسامة الصفراء الخبيثة، وبين شىء مرح تصادف أن كانت له علاقة بالجنس وبين شىء وضيع خسيس فى جوهره. ويتمشى مع هذا المبدأ قول أحد رجال التربية المشهورين «ليس من الخطأ أن تمزح مزاحاً له علاقة بالناحية الجنسية. أما أن تجعل الجنس موضعاً للمزاح والسخرية فإثم لا يجوز للفرد أن يقترفه بأية حال من الأحوال».

ونحن لو أخلصنا فى حكمنا على المذكرات المضبوطة فإننا لا نجد فى كثير منها ما يستوجب المؤاخذة، فلماذا نجأر إذن بالشكوى تظاهراً منا بالتقوى؟ أما إذا كانت هذه المذكرات بحيث تصور اتجاهاً فكرياً خبيثاً عند تلميذ معين فربما يكون من الأفضل ألا نعلق عليها تعليقاً مباشراً، وخير من ذلك أن نتحدث مع أصحابها من التلاميذ حديثاً خاصاً، على أن يكون مجرد حديث عابر لا وعظ مقصود. وقد لا ينتج هذا الحديث النتيجة المرجوة فى حال لأن محادثة دقائق معدودة قد لا تصلح بسرعة ما أفسدته التربية الخاطئة فى سنوات عديدة، وليس فى ذلك ما يدعونا إلى العجب أو إلى اليأس والقنوط.

ويلاحظ أن المذكرات الجنسية المتداولة بين التلاميذ تكون فى العادة مجرد نسخ معدلة عن الأصل، كما تكون فى بعض الأحيان من تأليف التلاميذ أنفسهم. وكثيراً ما تتضمن أشعاراً سقيمة أو قصصاً بذيئة لا تمت إلى الفن بصلة وفيها أبلغ دليل على انحراف عقلية صاحبها، لذلك فهى لا تعتمد على الناحية الفنية فى جذب القراء وإنما تغريهم عن طريق ما فيها من الفحش السافر. وإذا راود الأمل نفوسنا فى إصلاح مثل هذه النفوس السقيمة بسهولة كنا مبالغين، إذ يلزم الاستعانة بالطبيب النفسانى فى الحالات المتطرفة، أما فى الحالات الأخرى فعلينا أن نثق بأثر التربية المدرسية الجيدة إذا دعمه التأثير الطيب للمنزل الطيب. ورب قائل يقول «لقد كنا ننتظر حلاً خيراً من هذا!» وردنا عليه يتلخص فى أن المدرس الذى يتوقع أن تأتى التربية الجنسية بالمعجزات ويأمل فى أن تتمكن المدرسة من تصحيح سائر الآثار السيئة لمجتمع ردىء التنظيم إنما هو فى الواقع فريسة أوهام قاسية. والحق أن تبين حدود ما يمكن أن يتم فى المدرسة وتركيز الجهد فى سبيل الوصول إلى أبعد ما يمكن الوصول إليه من نتائج فى داخل هذه الحدود يعتبر أكثر تمشياً مع الواقع وأجدر بأن يؤدى مع الزمن إلى نتائج قيمة. ومهما كان الأمر فإن ذوى العقول المنحرفة قلة شاذة لا يقاس عليها.

أما معظم الأطفال الذين ينتجون بعض الكتابات الأدبية ذات الطابع الجنسى فلا يندمجون فى الموضوع إلا مجرد اندماج وقتى حتى إذا تخطوا هذا الدور ساروا فى نموهم العادى. فما الذى يدفع الأطفال إلى مثل ذلك الإنتاج؟ يلاحظ عادة أن كل ممنوع مرغوب، ولذا فإن المجتمع الذى يحرم على الأطفال مناقشة الأمور الجنسية بطريقة علنية يغرى هؤلاء الأطفال على أن يطئوا هذه المنطقة المحرمة فيتطلعون خلف الأسوار بغية الوصول إلى أشهى الثمار. أما

إذا رفعنا الحظر فإننا نقضى على دافع له خطره. ولا يعنى هـذا أنـه سـوف يـؤدى إلى القضـاء على اهتمام الأطفال بالجنس ولسنا نقول بـأن مـن الخـير لهـم أن يمضـى هـذا الدافـع إلى غـير رجعة، فالجنس مصدر طيب يستمد منـه الطـلاب الوحـى والإلهـام الأدبـى. والحـق أن بعـض مجهودات الشباب الفنية التى لا يكترث لها الكبار إنما تعبر عن قدرة وابتكار. نحـن لا ننكـر ما قد يشوب هذا الإنتاج، فغالباً ما يكون فى لغته إسفاف، والانفعالات التى يعبر عنها سقيمة فجة – والطفل معذور فى ذلك فنحن لن نهيئ له خيراً من تلك الألفاظ ما يصلح بديلاً عنـها! فإذا كان هذا النقص هو كل ما يشوب إنتاجه وليس ثمة دليل على اضطـراب نفسـانى جنسـى أو انحراف فكرى فعليك أن ترشد التلميذ إلى مصادر وقراءات أفضل مما معه، وأن تجعله يدرك أن الأطفال الآخرين ربما لم يصلوا بعد إلى مثل درجته من الاهتمام بالجنس، وأن تبين له كيف أن الحكمة تستوجب ألا يوزع مثل هذه الكتابات فى المدرسة. نعم، قد لا يجدى هذا الاقـتراح فى كل حالة، ولكن يحتمل أن يكون هذا التصرف أفضل كثيراً من الوسيلة المعتادة وهو وسـيلة العقاب والتحريم.

فحش القول:

وتنطبق نفس الاعتبارات السـابقة علـى مشـكلة اسـتخدام بعـض تلاميـذ المـدارس «للالفـاظ القبيحة» فى محادثاتهم الخاصة. غير أننا ننصح بضرورة التأكد من درجة فحش هـذه الألفـاظ وأن نتبين ما إذا كان هؤلاء الأطفال يجهلون التسمية العلمية لهذه المفردات أو لا يألفونـها ألفـة تشجعهم على استخدامها فـى أحاديثـهم الخاصـة، فـالطفل الـذى يرغـب فـى التحـدث عـن الأعضاء أو العمليات التى تتطلب استعمال كلمات القضيـب أو المـهبل أو الجمـاع ومـا إلى ذلـك ليست لديه الخبرة العلمية التى تمكنه من استخدام المصطلحات العلمية، فيضطـر إلى اسـتخدام تلك الكلمات الدارجة البذيئة التى يعتبر المجتمع أنها انحطت وهوت إلى الحضيض. فـإذا مـا تم ذلك تبينّا أن قدراً كبيراً مما نعتبره مـن فحـش القـول يصبـح مناسـباً تمامـاً إذا عبرنـا عنـه باسمه البيولوجى العلمى. يتضح من ذلـك أن مـا يجـب علينـا عملـه لا يتلخـص فـى محاربـة استعمال الكلمات الفاضحة وإنما فى تهيئة اللفظ المحترم. ولابد لنـا مـن أن نوضـح للتلميـذ أن الألفاظ وإن كانت لا تتمايز بعضـها عـن بعـض مـن حيـث الجوهـر، إلا أن المجتمـع المـهذب لا يرضى عن بعض هذه الألفاظ ولا ينظر بعين الرضا إلى استخدامها فى الحديث.

وإذا كنا قد التمسنا العذر للأطفال فى استخدام تلك المفردات فإن هـذا لا يمنعنـا مـن القـول بأن بعض أحاديثهم قد تتضمن بعض أفكار لا يرضى عنها المجتمع. وربما كان سـبيل النجـاح فى معالجة هذه المشكلة أن نوضح للطفل «لماذا» تعتبر مثل هـذه الأفكـار غـير مرغـوب فيـها. حدث ذات مرة أن قال أحد الريفيين لرجل من رجال الدين إنه يصـرح دائمـاً بمـا يجـول فـى

خاطره، فردّ عليه بقوله: «ليست العبرة فى أن تقول ما يعنّ لك، ولكن العبرة أن تفكر ملياً قبل أن تصرح بما تريد». والحق أن هذا هو لب الموضوع، فنحن لا يهمنا كون الألفاظ المستعملة فجة صريحة بقدر ما يهمنا الاتجاه الذى تدل عليه الفكرة التى تعبر عنها هذه الألفاظ.

الرسوم الجنسية:

ومما يدعونا إلى السخط تلك الرسوم الجنسية التى يرسمها التلاميذ على الورق أو على حيطان دورات المياه ويكشف أغلبها عن اتجاهات غير سليمة نحو الجنس، ونتخذ مدى شيوعها مقياساً صادقاً للحكم على الجو المدرسى العام. ونحب هنا أن ننصح بضرورة التفريق بين مجرد الرسوم الجنسية غير المرغوب فيها وبين الرسوم الخبيثة حقاً، فكثير من الأولاد يشعرون بالحافز إلى الرسم حتى إذا بلغ الواحد منهم السن التى يهتم فيها بالجنس اهتماماً انفعالياً اتخذ من حيطان دورات المياه لوحات لرسم الصور العارية وهى صور يبدو فى كثير منها – والحق يقال – قدر كبير من الجودة والإتقان.

واعتراضنا الوحيد على هذه الرسوم ينصب على المكان، لأن حيطان دورات المياه ليست مكاناً صالحاً للرسم كما أن وجود مثل هذه الرسوم فى مثل هذه الأماكن قد يؤدى إلى تكوين ارتباط فكرى بين الجنس وبين الأوساخ والموبقات، كما قد يغرى على مزاولة الاستمناء. ويمكن حل هذه المشكلة بوسيلتين: أولاهما أن يراعى جعل حيطان دورات المياه نظيفة لامعة – ويفضل أن تكون من مادة بيضاء صلبة مثل القيشانى الأبيض الأملس الذى لا يمكن الرسم عليه، هذا إلى أنه يدفع التلاميذ إلى المحافظة على نظافته؛ ومن ناحية أخرى ينبغى أن ننظر إلى ما قد يبديه الطفل من اهتمام بمسالة العرى والصور العادية نظرتنا إلى أمر عادى ونهيئ له سبيل إشباع هذا الاهتمام. فإذا أراد الطفل مثلاً أن يرسم العرايا هيأنا له فى درس الرسم الفرصة المناسبة للتعبير عن هذه الرغبة. وإذا ما زوده المدرس بتشجيعه وتوجيهه بالقدر المناسب غلبت الناحية الفنية على اهتمامه وزال كل ارتباط غير مرغوب فيه.

وليس هناك شك فى أن الرسوم العارية التى يرسمها بعض التلاميذ أحياناً تمثل الفحش حقيقة وتكشف عما تنطوى عليه عقولهم من عوج وانحراف. وينطبق هذا الكلام بنوع خاص على الرسوم التى تضم فيها أعضاء التناسل كما ينطبق على الصور الشمسية العارية أو الرسوم التى تضاف عليها بعض التفصيلات الجنسية. وإن كان يقال أحيانًا أن الطفل عندما يضيف الأعضاء التناسلية للصورة التى حذفت منها هذه الأعضاء لا يفعل أكثر مما يفعل عندما يقوم برسم العينين والأذن والفم للوجه الذى خلا منها وأن هذا العمل لا يتعارض مع التصرف الطبيعى فى شئ.

ونحن من جانبنا لا ننكر أن مثل هذه الأعمال قد تفصح عن مكنون نفسه وتخرج الأمر من السر إلى العلن. ورغم ذلك فمن السذاجة أن نتوقع نجاحاً تاماً سريعاً فى إصلاح نفوس مثل هؤلاء الأطفال.

الصور العارية:

وثمة وسيلة تشيع بين الأطفال ينفسون بها عن اهتمامهم بالجنس، تلك هى مشاهدة الصور العارية. وقلما تكون هذه الصور فاحشة فى حد ذاتها، بل إنها تكون فى بعض الأحيان من روائع الفن الخالد ولذلك لا توجه إليها معارضة جدية فى الغالب. ولما كان من الممكن الحصول على معظم المجلات التى تحتوى صوراً عارية أو شبه عارية بأثمان معتدلة فإنها تشق طريقها إلى أيدى تلاميذ المدارس وتشيع بينهم. فماذا عسانا نفعل؟ ينبغى على كل معلم أن يراعى فى علاجه لهذه المشكلة سن التلاميذ ودرجة نضجهم من الناحية الانفعالية ومدى إقبالهم على هذه الصور. إن أول ما ينبغى أن نلخص الأطفال منه هو اعتقادهم بأن مشاهدة مثل هذه الصور يجب أن تتم فى السر بعيداً عن أعين الرقباء. يدلنا على وجود هذا الاعتقاد عندهم مبادرتهم إلى التفرق وإخفاء الصور عندما يسمعون وقع أقدام المدرس تدنو منهم، فإذا ما دخل الفصل وكان بعض التلاميذ يشاهدون عدداً منها سمعنا صوت الأدراج وهى تغلق لتخفى فى بطونها تلك المحرمات. فإذا أنت أفلحت فى أن تقتلع هذا الاعتقاد من نفوسهم. الاعتقاد بضرورة إخفاء هذه الصور عن أنظار المعلم بأى ثمن خوفاً من العقاب فإنك تكون قد قطعت شوطاً بعيداً فى حل المشكلة.

وإذا ما لاح أن اهتمام الأطفال بمثل هذه الصور هو ولع مَرَضِى معوج فإن الأمر يتطلب وقتاً طويلاً لتقويمهم من الناحيتين الفكرية والانفعالية. ولكن يحدث فى أغلب الأحيان أن يكون إقبال الأطفال على هذه الصور مجرد تعبير عن اهتمام طبيعى عندهم، وإن كان هذا الاهتمام يقوى فى بعض الأحيان نتيجة لكبت ميولهم زمناً طويلاً، ويشتد نتيجة لما يحسونه من الاغتباط بعمل شىء يروع الكبار ويعتبره بقية التلاميذ ضرباً من «الرجولة».

إن مثل هذه الحالات السابقة لا تجعلنا نواجه مشكلة حقيقية يعسر حلها. وهى لا تتطلب منا أكثر من مناقشة الأمر أمام التلاميذ وعدم اعتبارهم مذنبين، وأن نهيئ لهم نواح للتنفيس عن هذا الاهتمام خيراً مما عندهم – وإذا حدث وشقت مثل هذه المجالات طريقها إلى أيدى الأطفال الذين لم ينم عندهم بعد مثل هذا الاهتمام نمواً طبيعياً لصغر سنهم، وأردنا أن نحول بينهم وبين المثير الذى قد يؤدى إلى استثارتهم قبل الأوان، أمكننا أن نتبع الأسلوب الذى اتبعه أحد المعلمين مع تلميذه وكان فى السابعة من عمره: رآه ذات مرة يحمل إحدى مجلات الصور العارية، فقال له بلهجة عادية: حقاً أنها صور لطيفة، أليس كذلك؟ ولكن ألا تفضل

أن تأخذ مجلة فكاهية بدلا منها؟» فأجاب التلميذ على الفور: «أيوه يا فندى» فقال: «هل لك أن تبادلنى؟ أعطنى مجلتك الآن وسوف أحضر لك مجلتى غدا». وربما كان العيب الوحيد لمثل هذه الطريقة هو توفير الأعداد الكافية من المجلات لمواجهة تهافت الأطفال، فقد حدث فى الحالة التى أشرنا إليها عندما تبين التلاميذ ميزة المجلة الجديدة أن تهافتوا على أن يستبدلوا بمجلاتهم مجلات أخرى من النوع الجديد، حتى لقد كان الواحد منهم يسرع وبيده إحدى المجلات ويسأل ما إذا كان باب استبدال المجلات لايزال مفتوحاً!

الصحف المبتذلة:

وثمة نوع آخر من المطبوعات – يرد أغلبه من الخارج – ويختلف عن مجلات الصور العارية وشبه العارية ونقصد به تلك المجلات التى تتعمد استثارة الشهوة البهيمية. ولهذه المجلات أثر سيئ على التلاميذ ومن الخير ألا تقع فى أيديهم. وأغلب الصور التى تتضمنها مثل هذه المجلات لا تمثل الأجسام العارية فقط وإنما تمثل المرأة وهى تتحرر من ملابسها قطعة قطعة أو تصورها فى أوضاع مثيرة، وهى لا ترمى من عرض هذه الصور إلى بيان المحاسن والمفاتن بقدر ما يصرح لسان حالها بأن الخطوة التالية هى الجماع. كما تنطوى قصصها على نفس المرمى، بل وتعطى القارئ فكرة خاطئة بأن الجماع عملية جسمية صرفة ليس فيها أى أثر للمشاركة الوجدانية العميقة. بل أنها قد تدفع المرء إلى الظن – وبعض الظن إثم – بأن إهداء المرأة معطفاً من الفراء أو عقداً من اللؤلؤ أو ما انخفض عن ذلك أو ارتفع قيمة يمكن اعتباره بديلاً مناسباً فى مقابل استمتاع الرجل بها. وليس هناك أدنى شك فى أن هذه الأمور كلها قد تعطى الناشئ فكرة منحطة عن الجنس، كما قد تثير اهتمامه بالجنس قبل أوانه، كما تعتبر تحريضاً على الفسق وتضعف من قدرته على مقاومة الرغبة فى الاستمناء. ولذا فكل منصف سديد الرأى لا يتوانى عن التنديد بها.

غير أن مجرد القول بضررها لا يكفى للقضاء عليها فقد يكون الكبار لها كارهين بينما يقبل عليها الفتيان متلهفين، فما هو العلاج الملائم لهذه المشكلة؟ علينا أن نفرق بين الحالات المختلفة، وليس من العسير علينا فى حالة التلاميذ الكبار الذين حصلوا على تربية جنسية مناسبة أن نبين لهم انحطاط هذه المجلات، أما صغار الفتيان أو كبارهم ممن أهملت تربيتهم الأولى فتدعونا الحكمة إلى اتباع أساليب أكثر حزماً. فالاقتصار على مصادرة المجلات ومعاقبة قرائها علاج لا يحل المشكلة. إن العلاج الناجح يستلزم معرفة المصدر الذى يمد التلاميذ بهذه المجلات. عند ذلك يستطيع ناظر المدرسة أن ينصح البائعين بعدم عرض هذه المجلات أو بيعها للتلاميذ. وإذا لم يؤد حديث الناظر مع البائعين إلى أية نتيجة إيجابية انتقل الأمر من يد الناظر ودخل فى اختصاص البوليس والمحكمة.

العرى:

يشب كثير من الأطفال وهم يشعرون بأن العرى عمل خاطئ وأن أعضاء التناسل من الأشياء التى يجب حجبها عن الأنظار، فليس ثمة ما يدعونا إلى الدهشة إذن إذا علمنا أنهم يشعرون بالمتعة من رؤيتها أو من عرضها، ولكن العرض والاستعراض الذى يشوبه الخجل هو النوع غير المرغوب فيه إطلاقاً. نحن نعرض فى ردهات المدرسة وممراتها صوراً مختلفة تعبر عن شتى المشاعر الإنسانية، فإذا تخيرنا منها بعض الصور العارية المناسبة أتحنا بذلك الفرصة لظهور مدى الاهتمام والاستمتاع الذين يحسهما ذوو النفوس السليمة عند رؤية الجسم البشرى. وإذا سمحنا للتلاميذ باستخدام حمامات المدرسة وأحواض السباحة وهم عرايا دون أن يكون ثمة ما يدعوهم إلى الخجل فإن ما يشوب اهتمامهم من أفكار غير بريئة يتبدد سريعاً[1].

واختلاف اتجاهات التلاميذ نحو العرى أمر طبيعى يدلنا على ذلك ما سطرته إحدى المدرسات فى مدرسة داخلية للبنات بإنجلترا تصف سلوك التلميذات فى هذه الناحية فقالت ضمن تقريرلها: «.. أما عن العرى فقد تباين موقف التلميذات منه تبايناً ملحوظاً. إن موضع حمام المدرسة يحتم على التلميذات خلع ملابسهن فى مكان واحد. فعندما حان موعد الاستحمام لم تعارض معظمهن فى خلع الملابس فى مكان واحد غير أن بعض التلميذات عارضن فى ذلك بادئ الأمر، ولكنى أعتقد أن أمهاتهن هن اللائى يصدمن من ذلك. ولقد لاحظت أن صغار التلميذات كن يخلعن ملابسهن ويستحممن بدون إبداء أى اعتراض».

وقد تصادف المعلم بعض الصعوبات لأن بعض التلاميذ ينفرون من الكشّف عن أجسامهم، مثال ذلك ما حدث فى إحدى المدارس الثانوية فى إنجلترا. فعندما أقامت هذه المدرسة (أدشاشاً) ألحقتها بملعب المدرسة ليستحم التلاميذ تحتها بعد أداء تمريناتهم الرياضية، لم يقبلوا على خلع سراويل اللعب وصمموا على لبسها وقت الاستحمام تفادياً للكشّف عن أجسامهم أمام زملائهم. وقد مضى معظم الموسم قبل أن يستطيع المعلم دفعهم على خلعها بعد أن أقنعهم بأن موقفهم هذا يتطلب تجفيف السراويل مرتين كل أسبوع – وهو فى بلاد باردة مثل إنجلترا مهمة تستغرق وقتاً – مع ما فى ذلك من تعطيل اللعب وضياع المجهود. ثم مر نصف فترة أخرى قبل أن يرجعوا عن التمسك بجذب السجف – التى تفصل بين الدش والدش المجاور له – حتى لا يلحظ زملاؤهم أن لهم أيضًا أعضاء تناسل مثلهم. ولم يكد يقترب العام من نهايته حتى استغنى التلاميذ عن تلك السجف واستخدموها فى أغراض أخرى مفيدة، وأصبح اتجاه التلاميذ نحو الجنس اتجاهًا طبيعياً جداً.

---

(١) قد يهول هذا الاقتراح بعض المتزمتين ولكن هذا التهويل قد يخف لو أنهم ذكروا واقع الأمر فى ريف مصر مثلاً وعلى شطئان ترعها وقنواتها، ولو أنهم ذكروا أن سكان الريف قد يكونون أصح نفساً من سكان المدن.

وعندما نكون بصدد الكلام عن حمامات السباحة العمومية نلاحظ دقة الموقف إما لوجود أنظمة خاصة أو لوجود أفراد الجمهور، ولذا يتحتم على الأطفال ارتداء لباس الحمام فى تلك الأماكن. أما إذا كان للمدرسة حمامها الخاص بها أو كانت تنفرد باستخدام حمام عام لفترة معينة فيمكن الأطفال حينئذ الاستغناء عن لباس الحمام، وهذا هو ما يفعله فى الواقع أبناء الأغنياء وأبناء الفقراء. وقد علق على ذلك أحد المدرسين بقوله:

«إذا حذت المدارس حذو هؤلاء – يقصد أبناء الأغنياء والفقراء – تكون قد منحت أطفال الطبقة المتوسطة الأمتياز الذى كان يتمتع به منذ زمن بعيد تلاميذ المدارس الخاصة، كما يتمتع به الأطفال الفقراء مرغمين إذ لا يتيسر لهم استخدام الحمام أو اقتناء لباس البحر فيذهبون إلى أقرب ترعة مجاورة مجردين عن الثياب».

هذا ولا يصح إطلاقاً أن نفرض العرى قهراً على الأطفال الذين يتحرجون منه، ولكن عدد هؤلاء سوف يقل بالتدريج وخاصة فى المدارس التى يكون ارتداء لباس الحمام فيها هو الاستثناء لا القاعدة. وعلى كل حال فسوف يكون بين البنات – وبخاصة المراهقات منهن – من تميل إلى ستر نفسها. وتحضرنا بهذه المناسبة حالة جديرة بالذكر فى مدرسة للتعليم المشترك تتبع النظام الداخلى فى إنجلترا. لقد كان بهذه المدرسة حوض للسباحة خاص بها يستحم فيه التلاميذ جميعاً من بنين وبنات. ولم يكن يرتدى لباس البحر من التلاميذ والتلميذات ممن لم يتخط الرابعة عشرة سوى عدد قليل، أما معظم الكبار منهم فكانوا يفضلون ارتداء لباس البحر إذا استحم مع الجنس الآخر، بينما كان يفضل التحرر منه إذا كان يستحم مع أنداد من نفس جنسه.

ولم يكن ذلك مجرد اصطناع للحشمة من جانبهم – ولم يكن جو المدرسة يشجع مثل هذا التصنع – ولكن يبدو أن ذلك الموقف كان نتيجة لتحفظ طبيعى من جانبهم. فماذا فعلت المدرسة؟ إنها لم تجبر تلاميذها على العرى، لا بل ولم تزجر من ارتدى منهم لباس البحر. ولو قد فعلت ذلك لأخطأت خطأ بليغاً. فقد يؤدى هذا التصرف بالأطفال إلى توجيه انتباه خاص إلى أعضاء التناسل على نحو ما ينجم عن إصرارنا على سترها. وحيثما رغب التلاميذ فى الاحتشام يجب احترام رغبتهم. ولكن احترام تلك الرغبة شىء وتشجيع ما يشعر الأطفال بأن العرى شر فى ذاته أمر آخر يخالف الأول كل المخالفة.

وقد دونت إحدى ناظرات المدارس التقدمية فى إنجلترا فى مذكراتها ما يدل على أن صغار الأطفال ينظرون إلى العرى ببساطة على أنه أمر عادى. فقد جاء فى هذه المذكرات ما يأتى:

«عندما اجتاحت المدينة موجة الحر القاسية كان على الأطفال أن يقوموا بحركات إيقاعية داخل الفصل. وكانت المدرسة قد اقترحت أن يتخفف التلاميذ فى مثل هذه الظروف من

ملابسهم، على أن يبقوا بالسراويل فقط – وقد وافق على هذا الاقتراح أولياء أمـور التلاميذ ولم يرفض سوى اثنين منهم فقط. ولما أخذ الأطفال فى خلع ملابسهم الخارجية إذا بأحدهم يخلـع ملابسه كلها، ولم يبد من بقية الأطفال ما يدل على أنهم وجهوا إليه اهتماماً خاصاً، فقالت له المعلمة «لا يا بنى، لا تخلع سروالك فأكـبر الظـن عنـدى أن والدتـك لـن توافقـك علـى خلعـه أيضاً». فرد عليها الطفل قائلاً «نعم، نعم، هى تحب أن أفعل ذلك». وتصـادف أن كـان هـذا الطفل بالذات ابن مدير المدرسة فلما انتهى إلى علـم والدتـه مـا بـدر منـه، قـالت إن ابنـها لم يطلب منها السماح بذلك أبداً وإن كان ليس لديها ما يجعلها ترفض تصرف ابنها. ورغـم ذلـك فقد طلبت منه المعلمة أن يرتدى سرواله ثانية.

ثم حدث أن اشتد القيظ فسأل الأطفال معلمتهم عما إذا كانوا يستطيعون خلع ملابسهم كلها فقالت لهم المعلمة أنها لا تحب أن يقوموا بالرقص عرايًا، ثم أخبرتهم أن بعض الناس يحبـون أن يعرضوا أجسامهم العارية لأشعة الشمس وأن المكـان الوحيـد الـذى يسـتطيعون التمتـع فيـه بحمام الشمس على ذلك النحو هو الأرض السندسية الخضراء المجاورة للمدرسة – وكانت هذه الأرض ملكاً لمدير المدرسة وقد خصصها لحصص التدريبات البدنية. فـإذا جـاء يـوم الجمعـة – وكان نصفه الثانى مخصصاً للألعاب الحرة. وكان الجو لا يزال حاراً فسوف نسمح لـن حصـل على موافقة والدته بالتحرر من ملابسه. وعندما حل يوم الجمعة سئل كـل طفـل عـن رأى أمـه فتبين أن ٧٠٪ من الأمهات قد وافقن، وهكذا أمضى الأطفال عصر يوم ممتع. وقد رأيت بعينـى رأسـى تلاميذ المدرسة – العرايا منهم وأولئك الذين تخففوا مـن بعـض ملابسـهم فقـط – وكلـهم منصرف إلى الاستمتاع باللعب بالكور والقفز بالحبل.. ولم تبد منهم أية إشـارة بـالقول و العمـل تشتم منها رغبة أحدهم فى التطلع إلى جسم زميله بقصد الاسـتطلاع وإنمـا كـان سـلوكهم يـدل على أنهم اعتبروا هذا العمل جانباً عادياً من الحياة المدرسية.

وهذا النجاح لا ينفى احتمال وجود أم ضيقة الأفـق كتلـك التـى سـألت ابنتـها عمـا حـدث وكانت الابنة فى الخامسة من عمرها. عند ذلك اضطربـت الطفلـة وتضرجـت وجنتاهـا بحمـرة الخجل ثم قالت «لقـد خلـع كـل طفـل سـراويله إلا أنـا والمعلمـة» فـردت عليـها أمـها قائلـة «ألا فاعلمى يا بنيتى أن الدين يحرم العرى ولذا فقد وهبنا الله لباساً يوارى سوآتنا».

وقد وفقت نفس المعلمة إلى حل معقول فى ظرف آخر استغلت فيـه الضبـط الاجتمـاعى فقـد حدث لها أن شاهدت إحدى التلميذات – وكانت فى التاسعة من عمرها ولكـن جسـمها كـان نامياً – فى الملعب وقد ارتدت سروال اللعب فقط – وكان الملعـب محاطـاً بسـياج مـن حديـد يجعله مكشوفاً لمن يمر فى الشارع المجاور، فقالت لها المعلمة فى سياق الكلام إنـها تنمـو الآن بسرعة وربما كان من الأفضل بالنسبة لها أن ترتـدى صديريتـها إلا إذا كـانت فـى مكـان غـير مشكوف، وإن البنات الكبار يحبون أن يسترن أجسـامهن فـى حضـرة الغربـاء. ويخيـل إلى أن

هذه النصيحة كانت موضع تقدير البنت كما كانت موضع تقدير بقية التلميذات. وعندى أن الاتزان العقلى عند المعلم يؤدى إلى الاتزان العقلى عند الطفل. ويستطيع المعلم أن يكوّن عند الأطفال اتجاهاً سليمًا نحو العرى بدون أن يعروا أجسامهم خارج الأماكن الخاصة.

غراميات البنين والبنات:

وتتحدد المشكلة فى المدارس المختلطة على الأخص على النحو الآتى «كيف نتصرف إزاء ما قد ينشأ بين كبار التلاميذ والتلميذات من (علاقة)؟» فنرد متسائلين «ولماذا يتحتم علينا أن نفعل شيئاً؟» ينبغى أن تنمو هذه العلاقات البريئة فى ضوء النهار وبكيفية سليمة وفى جو سليم بدلاً من أن يعتورها الغرض السىء ويستحيل لونها نتيجة إخفائها فى الظلام. ويبدو لى أن أغلب المعلمين الذين يثيرون هذه المشكلة يهتمون بنوع خاص «بسمعة مدرستهم» أكثر من اهتمامهم بسلامة النمو الانفعالى لتلاميذهم. وعندى أن ما ينشأ من علاقة الصداقة البريئة بين شباب الجنسين قد يصبح عنصراً ثميناً فى تربيتهم، ولاشك فى أن الأولاد والبنات الذين يتلاقون معاً فى ظروف العمل العادية تتكشف لهم الأخلاق والطباع على حقيقتها ويدركون سريعاً أن الصداقة التى تستند إلى مجرد الجاذبية الجنسية عقيمة لا تقارن بالصداقة التى تقوم نتيجة للزمالة الفكرية والاحترام المتبادل.

وكلامنا السابق لا ينصب إلا على علاقة الصداقة البريئة، أما إذا تطورت هذه الصداقة ودخلت مرحلة التلامس والمعانقة أو الاتصال الجنسى بالفعل فإن الحاجة تصبح ماسة إلى علاج حاسم سريع. إذ أنا مهما اختلفنا فى المستوى الخلقى الذى ينبغى أن يلتزمه الكبار فمن المتفق عليه عامة أن تلك الفعال غير مرغوب فى وجودها بين أطفال المدارس، ولذا فإن المدرس الذى يصطنع الحزم فى منعها يكون محقاً كل الحق فى ذلك. ومهما كان الأمر فلن يقع هذا سوى نادراً، والعادة أن هذه العلاقات الغرامية لن تكون سبباً للجزع أو القلق.

التجريب الجنسى:

إن الأطفال مخلوقات صغيرة تهوى الكشف والمخاطرة، وعلى المرء أن يوطن نفسه على مواجهة ما يحتمل أن يقوموا به من تجريب جنسى، أو ما يبدو أنه من هذا النوع. ومن المسلم به وجود هذا اللون من نشاط الأطفال فى كثير من المجتمعات البدائية، ولكن هناك من يشك فى أن أطفالنا يقومون بمثله. غير أننا نبدد هذا الشك بذكر ما لاحظته إحدى ناظرات المدارس، وهى ممن يرهفون السمع ويفتحون العيون فى دراسة الأطفال، قالت: «إن صغار الأولاد والبنات يلعبون معاً لعباً جنسيًّا خلف الشجيرات».

وكثيراً ما يستغل المعارضون للتربية الجنسية احتمال قيام الأطفال بهذا النوع من التجريب فيتخذونه حجة ضدها وذلك عندما تبوء هجماتهم بالفشل، غير أن حل المشكلة يتطلب

لا الإقلال من التربية الجنسية بل زيادتها والارتفاع بمستواها. فإذا كان من يقوم بالتجريب الجنسى أطفال لم يبلغوا الحلم بعد فمن الخير أن نتدبر الأمر فى شىء من الهدوء أكثر مما نفعل مع كبار التلاميذ، وذلك لعدة أسباب: ففى حالة الأطفال الصغار ليس هناك ما يدعونا إلى الظن بوجود فكرة معينة لا نرغب فى وجودها فى أذهانهم، أما فى الحالة الثانية فثمة احتمال لذلك، مما يفرض علينا استخدام تدابير أكثر حزماً. كما أن الآثار التى ترتب على قيام صغار الأطفال بهذا النوع من التجريب ضئيلة جداً من الناحية الخلقية، ذلك لأن الأخلاق الحقيقية إنما تتكون نتيجة للاختيار القائم على الفهم المبنى على التفكير والتقدير الوجدانى للنتائج المترتبة على هذا الاختيار، وإن كان انقياد المرء للتقاليد دون تفكير أمر يحمده المجتمع. والرأى عندى أن التجريب الجنسى أو ما يبدو أن له هذه الصفة لا يكاد يعتبر فجوراً من جانب الطفل أو دليلاً على فساده حتى يفهم مختلف المعانى الشخصية والاجتماعية للناحية الجنسية وحتى يعانى بعض انفعالاتها. ورغم ذلك فيمكن اعتبار قيام الأطفال به أمرا غير مرغوب فيه كى لا يصبح عادة تنشأ مبكرة قبل البلوغ وما قد تؤدى إليه من فهم للجنس غير مرغوب فيه أو احتمال تكوين اتجاه تافه خاطئ نحو الجنس. وعلى ذلك ينبغى للمدرس أن يحول بين الطفل وبين الانقياد لهذه النزعة، لا باللوم الخلقى أو العقاب البدنى ولكن بالتثبيط الهادئ وتهيئة نواح من النشاط تصلح بديلاً لهذه النزعة.

ولما كانت بعض عناصر الأخلاق الجديدة تبدأ فى الظهور عند المراهقين إذ يكونون بصدد تقدير مغزى الجنس فى الحياة، فإن الحكمة تستدعى أن تناقش هذا الأمر معهم بشكل مباشر وأن تشير إلى الأسباب التى تجعلنا نعتبر مثل هذه التجارب غير مرغوب فيها، وفى وسع معظم البنين والبنات بين الثالثة عشرة والتاسعة عشرة أن يدركوا مدى ارتباك حياتهم والكوارث التى تنزل بهم إذا ما أصبحوا آباء قبل الأوان كما أنهم كفيلون بالشعور بمقدار المسئولية التى تقع عليهم بإزاء طفل يولد فى مثل هذه الظروف القاسية.

وقد تجدى المناقشات وهى تحمل بين طياتها تحذيرًا صريحاً من العواقب الوخيمة لمثل هذا السلوك، ولكن ما العمل إذا أخفقت ولم تحقق الغرض المقصود؟ إن هدف هذه المناقشات لا يقتصر على تحصين أخلاق الطرفين وإنما يشمل إنقاذهم من نتائج سوء تصرفهم ومنع ما قد ينجم عنه من عواقبه الوخيمة بالنسبة للآخرين أيضاً. وفى ظرف كهذا قد يشعر المعلم أنه ملزم باتخاذ تدابير قاسية حتى ولو أدى الأمر إلى التفريق بين التلاميذ الذين أوجدوا المشكلة بتحويل أحدهم على الأقل إلى مدرسة أخرى. وهذا العلاج وإن كان لا يحل المشكلة بالنسبة للأفراد ذاتهم – إذ يتطلب الأمر تربيتهم من جديد – إلا أنه يقلل ما قد يترتب على هذه المشكلة من عواقب وخيمة.

ومهما كان الأمر فيجمل بنا ألا ننظر إلى أسلوب معين من سلوك أطفال المدرسة نفس نظرتنا إلى ما يشبهه من سلوك الراشدين. والواقع أن لكل حالة فردية علاجها الخاص وليس

أقدر من المدرس المختص، وهو الخبير بحالة الطفل الفكرية والوجدانية وحالته المنزلية وما إلى ذلك، على وضع قواعد معينة لعلاج كل حالة من هذه الحالات. ويستطيع العالم النفسانى أن يبذل فى أغلب الحالات مساعدات قيمة وينبغى للمعلم أن يستأنس برأيه إذا استغلق عليه الأمر.

الاستمناء:

لقد صادف معظم المعلمين فى مدارس البنين مشكلة الاستمناء فى وقت من والأوقات، ولكن الكثيرين منهم لم يدروا كيف يتصرفون بإزائها. وهذه المشكلة لا تخص المراهقين فقط وإنما يزاولها الأطفال الصغار أحياناً. وقد قام أحد نظار المدارس الابتدائية الداخلية فى إنجلترا ببحث حالات ١٥٠ ولداً متوسط سنهم ١٠,٥ سنوات. وقد دل البحث على أن:

٣٤٪ منهم لم يزاولوا عادة الاستمناء إطلاقاً

١٤٪ زاولوا تلك العادة فى وقت من الأوقات ثم أقلعوا عنها نتيجة لتأنيب ضمائرهم أو لأن أمهاتهم قد تحدثن إليهم بشأنها.

١٠٪ يزاولون العادة السرية كل ليلة.

٢٧٪ يزاولون العادة السرية مرة كل أسبوع.

١٥٪ يزاولون العادة السرية مرة كل أسبوعين.

ونحن لا ندعى أن هذه النسب تنطبق على جميع الأولاد فى هذه السن، ولكنها تصدق بالتأكد على من هم أكبر منهم بقليل. وغالبية الأطفال يقعون فى أسر تلك العادة فى بعض أدوار حياتهم. ومن المهم أن نشير إلى أن مزاولة هذه العادة لا تحدث فى نفوس الصغار من الاضطرابات النفسية ما تحدثه عادة فى نفوس الكبار منهم.

وإذا بحثنا حالات الذين زاولوا هذه العادة فى سن مبكرة نجد نسبة البنات أعلى من نسبة البنين. والإحصاء التالى مأخوذ من عدة أبحاث قام بها إخصائيون وهو يمثل النسبة المئوية لعدد من يزاولون العادة السرية فى مختلف الأعمار.

السن التى بدأت عندها مزاولة العادة	نسبة الذكور	نسبة الإناث
حتى سن ١٢	٢٠,٩٪	٤٩,١٪
من ١٢ – ١٥	٤٤,٣٪	١٤,٦٪
من ١٥ – ١٨	٣٠,٣٪	٦,٢ ٪
بعد ١٨	٤,٥ ٪	٣٠,١٪

ومن المحتمل أن ينظر كثير من الراشدين بعين الشك إلى النسب التى أوردتها الإحصائية عن عدد البنات اللائى يزاولن هذه العادة فى طفولتهن. ولاشك فى ضرورة القيام ببحوث أوسع للوصول إلى أساس أكثر رسوخاً لتكوين رأى صائب.

وفى معظم الحالات نجد أن طريقة الذكور فى الاستمناء الفردى هى مسك القضيب باليد، وإن كانت هناك أساليب أخرى معروفة. أما الإناث فيحصلن على اللذة عادة من مجرد حركات الفخذين أو بحك المناطق التناسلية بالأشياء الخارجية كالأدراج والمقاعد، وقد عرفت بعض حالات استخدمت فيها الأقلام والشموع وما شابهها بديلاً عن القضيب. وهذه حالات شاذة لن تصادفها المعلمات فى المدارس إلا فى النادر، ومع ذلك فعليهن بالحيطة حتى إذا وجدت هذه الحالات وجب الاستعانة بالطبيب النفسانى لعلاجها.

وعندما نكون بصدد الكلام عن الأطفال العاديين فإن أول ما يجب تقريره هو أن الاستمناء ليس مشكلة خطيرة على نحو ما ننظر إليه فى العادة. وسوف تعالج هذه المسألة كلها بتفصيل أوسع فى فصل تال. لكنا حتى مع التسليم بهذا يندر أن نجد أحداً من ذوى الخبرة فى هذا الموضوع يستطيع أن ينكر أن مزاولة الاستمناء – وهو قليل الضرر أو عدم الضرر على الإطلاق – قد تصبح فى ظروف معينة أمراً باعثاً على السخط والاعتراض حقًّا، كما يحدث عندما يلجأ التلاميذ فى المدارس الداخلية إلى عنابر النوم أو إلى دورات المياه بالمدارس الخارجية لمزاولة الاستمناء المتبادل. وكثيراً ما كان طلب أحد التلاميذ الإذن بمغادرة الفصل وسيلة لإخفاء قصده مزاولة الاستمناء حيث لا يحتمل أن تكشف فعلته. وقد يكون الاستمناء ضاراً فى بعض الأحيان، ولكن هناك احتمالاً فى أن يؤدى الإدمان عليه، فى مثل تلك الأماكن إلى الربط بين وظائف التناسل والإخراج بكيفية تحمل معها بذور الاضطراب أو الشذوذ الجنسى. وقد يلجأ الأولاد أزواجاً أو جماعات إلى دورات المياه حيث يزاولون معاً العملية التى يزاولها الواحد مفرداً فى العادة. ويحتمل جدًّا فى مثل هذه الظروف أن يتكون لديهم، إذا كان قد بقى فى نفوسهم بعض الحياء، شعور بالاشتراك فى الإثم، شعورا قد يهيئ لهم شيئاً من النشوة ولكنه قد يصبح فيما بعد أساساً لكثير من التعاسة. ذلك لأن هذا الطريق هو أحد السبل التى تؤدى فى النهاية إلى الجنسية المثلية أو عشق الجنس.

فما الذى ينبغى علينا أن نعمله إذن؟ سوف نتكلم عن ذلك بإسهاب فى موضع آخر. غير أننا نؤكد منذ الآن أن الحل السليم لا يتفق مع ما تلجأ إليه بعض المدارس الداخلية من إزالة جميع مزاليج أبواب المراحيض وعدم السماح بوجود أكثر من تلميذ واحد خارج الفصل فى نفس الوقت. ولعلك تدرك أن مثل هذا العلاج هين جدًّا ولكنه غير موفق أبدا، بل إنه قد يثير فى أذهان الأطفال بعض الأفكار التى ما كانت تخطر لهم إلا نتيجة له. كما أن مثل هذا العلاج يستلزم تشدد المدرسة فى تنفيذ التدابير «الوقائية» فتكلف أعضاء هيئة التدريس مراقبة

التلاميذ سرًّا فى مخادعهم مما يـؤدى بـهم إلى التطفـل علـى شـئون التلاميـذ الخاصـة إلى حـد لا يمكن احتماله. إن الحل السليم يتطلب من المرء أن يوازن بين أمرين: بين الاحترام الواجـب لحق التلميذ فى حياة خاصة به وبين الحاجة إلى دراسة التلميذ عن طريق توجيه أسـئلة لبقـة إلى من يظن فيهم الإسراف فى مزاولة العـادة السرية. وقـد تظـهر نتيجـة لهـذا البحـث اللبـق ضرورة استشارة أحد الإخصائيين فى المسائل النفسية غير أنه يكفى فـى أغلـب هـذه الحـالات حديث مخلص عطوف مع أولئك التلاميذ. وإذا حدث أن أخفقت هذه المحادثـات فليـس ثمـة ما يدعونا إلى اليأس. ولن يستطيع المعلم بسهولة أن يصلح ما أفسدته سـنوات طويلـة تعـرض فيها الطفل لتربية خاطئة وبيئة اجتماعيـة فاسـدة. وكـل مـا نرجـوه أن يجـد بعـض التلاميـذ ما يعينهم على تكوين اتجاه سليم نحو الجنس وإعدادهم لحياة جنسية راضية.

عشق الجنس:

ولما كان الاستمناء ظاهرة يشيع وجودها بـين المراهقين الذكـور إلى درجـة تجعلنـا نعتبرهـا ظاهرة عادية من ظواهر النمو، وجب ألا يكرس لها المعلم من اهتمامه إلا قـدراً يسـيراً. غـير أن مثل هذا القول لا يمكن أن يقال عن عشق الجنس. فإن هذه الحالة الأخيرة انحـراف حقيقـى، ولاشك فى وجود بعض حالاته فى مدارسنا. وعندمـا نعـبر عـن حـالات عشـق الجنـس بأنـها حالات انحراف فإننا نقصد به بصفة أساسـية ذلـك الاتصـال الجسـمانى بـالفعل، أمـا التعلـق الوجدانى بين فرد وفرد آخر من نفس جنسه فهو أمر عادى تماماً وخاصة قبل المراهقة. وزيـادة على ذلك فيجب علينا ألا نحمل كلمة «انحراف» التى استخدمناها هنـا علـى محمـل الحكـم الأخلاقى. إن الدراسة العميقة لعمل الغدد الصمـاء والكيفيـة التـى تـؤدى بـها عقولنـا وظائفـها تحتم علينا أن نصطنع الشفقة فى النظر إلى أولئك الذين لا يجدون الإشـباع الكـافى عـن طريـق السلوك العادى القائم على الجنسية الغيرية – نتيجة لتراث عقلى أو بدنى، أو لما مرّ بـهم فـى هذه الناحية أو تلك – وهم لهذا يؤثرون أن يهبوا حبـهم رفيقـاً مـن جنسـهم. وسـواء عاملتـهم بالحسنى أم لم تعاملهم بها فهذا انحراف لاشك فيه. ورغم أنه ليس فى وسعنا أن ننكر وجـود فترات من التاريخ كان يعتبر فيها عشق الجنس أمراً محمـوداً، أو أن جانبـاً مـن خـير الإنتـاج الفنى فى مجتمعنا إنما أبدعه عشاق الجنس، فإننا لا نستطيع أن ننكـر مـن ناحيـة أخـرى أن معظم الناس فى معظم العصور كانوا يفضلون الجنسية الغيرية أيما تفضيل.

والناس عندما يفصلون البنين عن البنات فى المدارس ثلاثة أرباع العـام إنمـا يضعـون البـذرة لقدر عظيم من المشاكل فى تلك الناحية. وقد وصف بعضهم السجون التى يرجى منها أن تكون للتأديب والإصلاح بأنها «أديرة يسكنها أفراد لا يرغبون أية رغبة فى أن يكونوا كالرهبان عفـة وزهداً»، ويمكننا أن نطلق نفس الوصف على المدارس الداخلية. وعندما نكون بصدد الكلام عـن

المدارس الخارجية، نجد أن حياة الأسرة العادية وما تسمح به من اتصال أفرادها بأفراد الأسر الأخرى يمنع تطور المشكلة على النحو السابق. ولكن حتى فى هذه الحالة الأخيرة ليس من النادر أن تصادف حالات ينطبق عليها وصف المربى إدوارد كارينتر: ينظر الولد الصغير إلى الكبير كبطل يهوى صحبته، ويستخفه الطرب لسماع كلمات الحنان تخرج من بين شفتيه. ثم يحدث أحياناً أن تبدأ بين الاثنين علاقة جسدية.

والاقتصار على معاقبة التلاميذ فى تلك الأحوال ليس حلاً للمشكلة – أما العقوبات البدنية فقد تزيد الطين بلة.. وكثيراً ما تكون المحادثة الودية خير عون فى هذه الظروف، ويمكن تدعيم هذا العلاج باتخاذ التدابير لفصل كل من الطرفين عن الآخر على قدر الإمكان. وقد يتبين المعلم أحياناً أن الحكمة تتطلب الاستعانة بالطبيب النفسانى، كما قد يجد من الضرورى أن يستبعد طفلا معيناً – رغم يقينه بالحاجة إلى تربيته من جديد – حتى يحول دون تدنيس الآخرين. ولكن ينبغى علينا – رغم ما قد نلجأ إليه من التدابير الحازمة كما فى هذه الحالة .ألا نتسرع ونتهم الطفل من الناحية الخلقية.

التدله وعبادة الأبطال

إن تعبير «الجنسية المثلية أو عشق الجنس» تعبير مطاط يتضمن فى إحدى نواحيه تلك المظاهر الإجرامية فى جوهرها كما يمتد فى أغلب الأحيان من الناحية الأخرى حتى يشمل ما نسميه بألوان التدله أو الهيام التى قل أن تخلو منها مدارس النبات. وقد تنشأ هذه العلاقة بين تلميذتين كنتيجة لظرف عابر بسيط، ربما عند تقابلهما فى اليوم الدراسى الأول «كتلميذات مستجدات» ولكنها غالباً ما تتفاقم بدرجة ملحوظة. فعندما تتجول البنات وقد طوقت كل منهن خصر زميلتها بذراعيها فإنهن يعتقدن اعتقاداً جازما بأن ما بينهن من صداقة سوف يدوم إلى الأبد – وهو اعتقاد راسخ لا يضعفه ما قد يقوم بينهن من المشاحنات والمصالحات.

وقد تدل هذه الألوان من الوله فى بعض الأحيان على حاجة البنت إلى الإشباع الوجدانى، وعلى وجه الخصوص الإشباع الوجدانى من ناحية الأم، وقد تؤثر تلك الحاجة فى عملها المدرسى تأثيراً سيئاً، ولكن يبدو أن تلك المشاعر، رغم أن أصلها الانفعالى يعود إلى الجنسية المثلية، لا تحدث من الضرر إلا أقله أو لا تحدث أى ضرر دائم على الإطلاق. إلا أنها رغم ذلك، قد تستوجب جزع المربى عندما تتطور إلى مداعبات حب واضحة واشتراك فى العادات السرية. وفى هذه الحالة تتشابه النتائج التى تترتب على هذا التطور مع نتائج الاستمناء الفردى ونتائج الجنسية المثلية الجسدية عند الصبيان ونتائج العناق والمداعبة، ويمكن أن يستخدم فى تلك الأحوال ما أشرنا به من قبل خاصًّا بهذه النواحى.

وقد يكون تدله البنت نحو معلمتها أبعد خطراً فى آثاره الانفعالية. إذ يجعلها تتفانى فى صنع الهدايا لها، كما تغمرها الحماسة إذا تهيأت لها الفرصة لأداء أية خدمة لها مهما كانت طفيفة كإحضار حقيبة يدها أو مظلتها، كما تشكل البنت نفسها حسب بديل أمها وهى المعلمة فى سائر الأمور الصغيرة، فإذا كانت المعلمة سامية الخلق فقد يكون هذا التقليد مفيداً للبنت. غير أن البنت الصغيرة التى لم تنضج عندها القدرة على التمييز والتفريق بين الصالح والطالح قد تنقل عن معلمتها أيضاً بعض الصفات الوضيعة غير المستحبة.

ويجمل بنا ألا نغفل حقيقة على جانب كبير من الأهمية، وهى أن المعلمة المحرومة من نعمة الزواج وإنجاب الذرية تشتق قدراً عظيماً من الإشباع من مثل هذه العلاقة وإن تم ذلك بطريقة لا شعورية. وما لم تعالج المعلمة تلك العلاقة بحكمة فإن ذلك التدله قد يترك أثراً دائماً فى شخصيات البنات ويعوق نموهن السليم من الناحية الانفعالية. والمعلمة التى يقال عنها إنها معلمة عجيبة يفتتن البنات بها فتوناً جارفاً ينبغى عليها أن تتحفظ فى علاقتها بتلميذاتها. أما فى مدارس البنين فيمكن أن تراعى مثل هذه المبادئ وإن كانت الأمور لا تصل إلى هذا الحد من الخطورة إلا فيما ندر.

المدارس المختلطة:

جرت العادة على معارضة التعليم المختلط على أساس أنه يفتح السبيل إلى خلق سائر أنواع المشكلات الجنسية. وكانت تساق المعارضة لهذا النوع من التعليم فى معرض التهويل حتى لتطبع النفوس بفكرة أن مدارس التعليم المختلط مفعمة بالإثم والخطيئة. غير أن هذا الاعتراض مردود عليه من الناحية النظرية كما يدحضه واقع الأمور.

ومن الطبيعى أن ينبنى رأى الواحد منا على أساس ما يعتقد أن اسم «المشكلة الجنسية» ينطوى عليه فإذا كان يدخل فى هذا صداقة البنين والبنات فى فترة المراهقة فليس من شك أن هناك مشاكل جنسية حسب وجهة نظره. ونحن من جانبنا لا ننكر احتمال نشوء علاقات غرامية بين التلاميذ والتلميذات فى أية مدرسة مختلطة، ولكنها لا تؤدى عادة إلى مشاكل خطيرة إذا كانت فى حدودها العادية وما لم تؤد الأنظمة المدرسية الفاسدة إلى تطورها.

كما لا ننكر احتمال حدوث بعض حالات نادرة لعلاقات جنسية يتمادى فيها أصحابها بحيث تتطور فى النهاية إلى مشكلة حقيقية. غير أن هذا الاحتمال لا ينهض دليلاً ضد التعليم المختلط، إذ يحدث نفس الأمر أيضاً بين التلاميذ والتلميذات فى المدارس غير المختلطة؛ بينما تخلو المدارس المختلطة من الجنسية المثلية على الأقل. ولابد فى النظر إلى هذه المسألة من التزام جادة الإخلاص والأمانة، فالواقع أنا لو سألنا المعلمين لأكد الكثيرون منهم أن الجنسية المثلية انحراف لاشك فيه وهو لذلك أحط أخلاقيًّا من الجنسية الغيرية، ورغم ذلك فهم يفضلون –

إذا تحتم وجود حالة من هذا القبيل – أن تكون حالة جنسية مثلية بين تلميذين فى المدرسة بدلا من أن تكون حالة علاقة جنسية بين ولد وبنت. والواقع أن ما يدعوهم إلى ذلك الاتجاه هو ما قد تتمخض عنه هذه العلاقة الأخيرة من نتائج لا يحمدها المجتمع الخارجى. فإذا كان هدفنا المباشر أن نوفر للمدرسة «سمعة طيبة» كان للتعليم المختلط مساوئه التى لا تنكر، أما إذا كان أهم أهدافنا منصبًا على معاونة التلاميذ على النمو من الناحيتين الانفعالية والاجتماعية نموًا سليما فإن التعليم المختلط يوفر من الإمكانيات ما يعوض وجود هذه المشاكل.

وعندما يجتمع البنون والبنات فى حجرة الدراسة يدركون أن كلا من الجنسين يشبه الجنس الآخر فى العمليات العقلية إلى حد كبير، أن الذكور لا ينفردون بمواهب فذة تجعلهم ينفردون «بمنطق الرجل السليم» على حين أن الإناث يستعيضون عن تلك المواهب «ببصيرة النساء الثاقبة». وهذا الإدراك فى حد ذاته درس هام جدًا لأن قدراً عظيما من الاضطراب فى العلاقات الجنسية بين أفراد مجتمعنا إنما يرجع فى أساسه إلى مثل هذه المعتقدات الخاطئة. وعندما يشترك أفراد الجنسين معا فى السباحة والتجول والإقامة فى المعسكرات، وفى دروس الموسيقى والتمثيل والمناظرات فإنهم يتعلمون كيف يفهم كل منهما الآخر من الناحية الجسمية والانفعالية. وعندما يساهمون فى إعداد المائدة لتناول الطعام فى المدرسة، أو أدوات اللعب فإنهم يشبّون وقد راودتهم الفكرة بأن النساء لا يختلفن كثيراً عن الرجال من حيث الطاقة والوظائف الاجتماعية. يتحقق ذلك إذا كانت المدرسة مدرسة مختلطة حقيقة وليست من الطراز الذى وصفته إحدى التلميذات فيما مضى بقولها: «كان التعاون الوحيد الذى بيننا وبين البنين هو المناظرة السنوية، عندما كان يجلس الأولاد فى جانب من القاعة بينما يجلس البنات على الجانب الآخر. وكان هذا التصرف يقابل بعدم الاكتراث فى الفصول الصغرى، بينما كان يقابل بالدهاء والتحايل فى الفصول الوسطى، وبالعصيان الصريح فى الفصول الكبرى».

يقابل ذلك ما كتبته إحدى ناظرات المدارس المختلطة حيث كانت الأحوال على نقيض ذلك قالت: «كان سائر التلاميذ – بنين وبنات – يختلطون بحرية فى فترات الألعاب الرياضية وقد ارتدى كل فرد من الجنسين ملابس الألعاب، بحضور المدرسين والمدرسات، فلم تكن تنشأ صعوبة ما.. وكان تلاميذ المدرسة وتلميذاتها يعملون فيما بعد فى المصانع المختلطة، وكان الزواج يحدث فى سن مبكرة، حوالى العشرين، ولكنه لم يكن يحدث بسبب الحمل. وقد تحدثت فى ذلك إلى إحدى التلميذات السابقات – وهى الآن زوجة – فقالت لى: حقًا، لقد نشأنا معاً، أليس كذلك؟ وأعتقد أننا لم نكن نفكر كثيراً فى تلك الأمور».

الإلهام فى المدرسة:

إن المعلم الذى يعمل جاهداً على أداء واجبه على الوجه الأكمل، والذى يوفق فى اتباع ما تقتضى به أصول التربية الجنسية، والذى يستهدى الحكمة فى معالجة المشاكل الفردية

للسلوك الجنسى يبقى عليه بعد ذلك مواجهة كبرى المشاكل، وهى: كيف يوفر فى المدرسة الجو الذى يساعد التلاميذ على امتصاص الحقائق الجنسية بسهولة ويقلل احتمال حدوث المشاكل.

ومما يقوى ميل الأطفال إلى الاستطلاع الجنسى عادة تصميمهم على ألا يسبقهم أقرانهم فى الوصول إلى المعلومات. والطفل الذى يشعر أنه دون أقرانه فى تلك الناحية يحدث عنده شعور بالنقص. إنه سوف لا يصرح لهم بجهله ولكنه سوف يستخدم كل وسيلة – حتى ولو استدعى الأمر الاطلاع فى دوائر المعارف والإنصات بلهفة إلى المحادثات الجنسية وما شاكل ذلك – لكى يسد الثغرة فى المعرفة بينه وبينهم. وبالمثل فإن التلميذ الذى ليست لديه رغبة خاصة للاشتراك فى حديث «جنسى» أو مشاهدة الصور العارية أو حكاية القصص القذرة أو التمادى فى التجارب الجنسية غالباً ما يضطر إلى مجاراة زملائه خوفاً من أن يعيرونه بأنه «غرّ أبله». إن الجو المدرسى ينبغى أن يكون بحيث يشجع الطفل على أن يلجأ إلى المدرس يسأله الجواب على ما يراود نفسه من استفهامات، وألا يجد نفسه منساقاً إلى الحصول على المعلومات الجنسية لكى ينافس غيره، وأن يستطيع إذا دعاه داعى السوء من رفاقه رفض الدعوة فى حزم واحتقار.

لقد بدأت كلامى فى هذا الفصل بالإشارة إلى الجو المدرسى، وسوف أختمه بنفس الأمر. إننا فى سبيل المحافظة على الجو المدرسى ينبغى أن نسأل أنفسنا: هل هناك ثقة كاملة متبادلة بين التلاميذ ومدرسيهم؟ وهل تظلهم السعادة فى المدرسة؟ وهل يصر التلاميذ فى حزم على عدم إتيان الفاحشة ويشعرون أنهم أنداد للتغلب على همسات النفس الأمارة بالسوء؟ وهل قلت متاعب المراهقين النفسية بينما تكونت عندهم صداقة مثمرة؟ هنا مفتاح الحل الموفق لمشكلة التربية الجنسية فى المدرسة. فبدون جو سليم، لن يجدى كل تعليم الدنيا بأجمعه ولن يؤدى إلى فتح مغاليق الحياة السعيدة، أما إذا توفر هذا المفتاح – هذا الجو المدرسى السليم – فمن الممكن حينئذ فتح الباب على مصراعيه ليقبل التلاميذ على عالم جرىء جديد.